http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (2166) السنة الثامنة- الاثنين (20) حزيران 2011

هـــذا وطنـــي

وأنا أواصل رحلتي بيوميات المدى في باريس،كانت رغبة رئيس المؤسسة الأستاذ فخري كريم ان تكون الرحلات المقبلة داخل الوطن، ايمانا منه باهمية تعريف أبناء الوطن بمدنهم وقراهم والاطلاع على تأريخ بلادهم الزاخر بألق الحضارة واصالة التأريخ وعمق العلاقة التي تربط أبناء الوطن الواحد وتآلفهم بعيدا عن انتماءاتهم القومية والدينية،لكن رحلتي او محنتي مع المرض أعاقت المشروع،واطاحت برغبة المؤسسة مؤقتا. وها انا وبعد عودتي من الموت،نحرت صمت قلمي ويأس كلماتي وعاودت الابحار في عالم السحر والخيال الذي يملأ بلدي.. غير آبه بالخراب المؤقت الناتج من أيد خفية ادمنت ضمائرها عشق الدمار والظلام،جازما بصدقية قول الشاعر بأن العراق باق وأعمار الطغاة قصار.

صفحة هذا وطني ستكون اليوم عن محافظة دهوك، التي تعد اصغر محافظات اقليم كردستان الثلاث،ولكنها ليست اقلهن فتنة وجمالا،وقد يتساءل البعض لماذا دهوك أولا؟،ولهم الحق في السؤال وعلي واجب الرد،هناك سببان اولهما،كوني قضيت فترة نقاهتي من الداء في كردستان العراق، والثاني لي صديق صبٌ فارقته منذ ثلاثة عقود ولم اسمع عنه شيئا، على الرغم من اني بحثت عنه كثيرا في زياراتي العديدة لدهوك ولم اجده للأسف.

وادي دهـــوك مـــن الكـهـف

دهوك.. ١٠٧١٥ كم من السحر والجمال

على سفـح جبلهـا الأبيض تحاكي أوّل كهف سكنه الانسان

دهوك/ يوسف المحمداوي

شـعار الـديـانـة الزرادشـتيـة

الدليل إلى صباي

ولكن هذه المرة واثناء اقامتي ببيت المدى في اربيل طلبت من احد العاملين فيه وهو الصديق العزيز(ريبرعبد الله حسن)، من سكنة دهوك ان يحاول ايجاد صديق عمري،خاصة وانه ذاهب في اجازة الى اهله وبالفعل برهن ريبر بعد يومين من ذهابه بانه اسم على مسمى، لان ريبر تعني في اللغة الكردية الدليل،اتصل بي ليعطيني رقم هاتف صديقي برهان وكنت حينها جالسا مع الحبيب الزميل جمال كريم....وانا اتصل بهاتف برهان قلبي ويداي ترتجفان،لعله نسي الذ ايام حياتي،وصحبة مازال عسلها يلسع الضمير بحلاوته،اسئلة كثيرة وقلق اكثر اخرسه صوت برهان حين سألته هل تتذكرصديق فارقته قبل ثلاثين عاما؟؟؟ساد الصمت والتلفون يرقص في يدي قلقا كنبض القلب،صاح باعلى صوته كاكا يوسف..كاكا الشاعر...حبيبي اين انت؟،لم تستأذن دموعي نزلت بصدقها على شباب لا يعود،انا في اربيل يابرهان...قال اعطني العنوان غدا صباحا سأكون معك...قلت له لا.. لا انا قادم اليك.

وبالفعل تحايلت على سرير نقاهتي لاعود الى مراتع صباي،وهربت متلعثم الخطى باتجاه جنة كردستان..واعتقد ان اسبابي مقنعة باختيار دهوك في اولى حلقات هذا وطني.

تنوع جغرافي ودِيني

تبلغ مساحة دهوك ١٠٧١٥كم..تبعد عن بغداد ٤٦٥كـم وعـن اربـيـل ١٥٣كم،ولكونـهـا اقصى الشمال تبعد عن اقصى الجنوب محافظة البصرة ب١٠١٤كـم،امـا موقعها الجـغـرافي فهي اقصى شمال غـرب الـعـراق والشـمـال الـغـربـي لاقليم كردستان،تحدها من الشمال تركيا ومن الغرب سوريا،ومن جهتيها الشرقية والجنوبية الشرقية محافظة اربـيـل،ومـحـافـظـة نـيـنـوى من جهتيها الغربية والجنوبية،ولدهوك اهمية استرتيجية خاصة من حيث الموقـع الجـغـرافي الـذي جعل منها ممرا بريا مهما يربط الـعـراق بـتـركـيـا ومـن ثم العالم الخارجي من خلال معبر ابراهيم الخليل في زاخـو،وهـنـاك ايضا معبر اخر مع سـوريـا مـن خـلال فيشخابور في زاخو ايضـا،وهي معبر لخط انابيب النفط الذي يصدره العراق من حقول كركوك الى ميناء جيهان التركي.

وتتميز المحافظة عن بقية محافظات العراق بتعدد القوميات والاديان فيها،كالمسلمين والمسيحيين والايزيديين..وتتميز بروعة جمالها لـتـنـوع تضاريسها، فجبالها الثلاثة،الابيض ومامسين وزاو،فضـلا عن سهولها ووديانها ومصايفها جعلت منها مدينة جذب للسياحة من جميع بلدان العالم.وفي مدينة دهوك نهران صغيران الاول، يسمى نهر دهوك،اما الثاني يسمى (هشكه رو) لكنه يجف في فصل الصيف ويظهر في الشتاء فقط.

تعددت الأسماء والحسن واحد

اختلفت آراء المؤرخين في تسميتها،فالبعض يقول ان التسمية جاءت لوجود جبلين كبيرين في المدينة يماثل شكلهما شكل البيضة والتي تسمى باللغة الكردية(هيك) ودو تعني اثنان،فيما يشيرالمؤرخ حسين حزني موكرياني الى انه في اواسط القرن الرابع عشر الميلادي كان هناك امير يدعى (آخش ندو) في عهد مملكة نوزي،حكم المدينة وكان يفرض جباية على القوافل العابرة منها باتجاه سوريا او تركيا،وهي عبارة عن كفين او قسطين اوصاغين ودو تعني اثنين والصاغ هوك،فيما يعتمد المؤرخ انور مابي على تقرير صحفي نشرته جريدة العالمين ان اسم دهوك في عهد الامبراطور(تاسيسوس بيزا سيوس)كان جاهوك.

ثم تحول الاسم في ما بعد الى شندوخا التي هي الان احد احياء مدينة دهوك،ويدعم هذا الراي الكثير من المؤرخين كـ (انـور مابي) و(توفيق وهبي)،فيما يربط الاستاذ امين عصمان بان الاسم اصله كردي ومعناه القرية الصغيرة.

الدكتورفرست مرعي يذكر في احدى مقالاته ان دهوك كانت واقعة امام جبلين، وكلاهما يسمى بـ (سرهوك)،لذا سميت بـ(دو سرهوك)،ومن اجل التبسيط فقد ازيلت احرف الـواو والسين والراء،لتبقى الكلمة على وضعها الحالي.

وهناك عدة قرى كلدانية مسيحية تسمي المنطقة باسم (اتوك) فيما يذهب البعض الى تسميتها(نو هدرا)ومعناهامدينة الشمس،وهناك مهرجان ثقافي يقام سنويا تحت هذا المسمى يقيمه نادي نوهدرا الاجتماعي وقد دعيت اليه في العام٢٠٠٥،وكان برعاية محافظ دهوك السيد تمر رمضان،وهو يقام منذ العام١٩٨٦ واشرف على اقامته الأب الراحل يوسف حبي،المهم تعددت الاسماء والحسن واحد.

زبيب آشتي تبغ الطريق

في الطريق الواصل بين اربيل ودهـوك تحتاج الى اكثرمن عين لتلتفت الى سحر الجـبـال،الى الروابي،الى البساتين،الى فرح الناس بين مروج حباها الخـالـق بروعة الجـمـال،أعراس ودبكات على الطريق وأنـا اتسلى بزبيب اربيلي زودني به الصديق الغالي آشتي،كنت جالسا في المقعد الامامي لسيارة اجرة حديثة،ومعي بالاضافة الى السائق ثلاثة من الشباب الكرد الذين لا يجيدون اللغة العربية،ورغم صمتي كان في قلبي اكثر من جرح يتكلم،لماذا لم يفرض علينا الطاغية تعلم اللغة الكردية مثلما فرض علينا الحـروب؟لماذا افرض على هؤلاء الاربعة او ارغب على الاقل ان يتحدثوا بلغتي،وانا واحد وهم اربعة؟،ولكني اسكت اسئلة الجروح بأبيات شعر لاستاذي في ثانوية المصطفى بمدينة الثورة سابقا الصدر حاليا الدكتور بدر خان السندي يقول فيها:

غزلنا..وغزلنا..وغزلنا..من خيوط القلب..من ألـوان الـورد..مـن آلام الجـروح..مـن لحـى الآبـاء والجـدود..مـن أهـداب الرضـع..غزلنا ولكن..وا اسفي..أخطانا في الحياكة.

غزلنا مع البنات

جـاءني صـاحـب المطعم ليـقـول لي كـاكـا يـوسـف حسابك واصل من كاكا برهان وسيصل الآن!!.

وأنـا عـلـى الكرسي كانت عيناي واقفتين بـبـاب المـطـعـم مع قـلـبـي،كـيـف شكله الآن؟،هل سيعرفني..

دفـع بـاب المـطـعـم رجـل بـنـظـارتـيـن ومن ابتسامته لي عرفته هو برهان حاولت النهوض لم استطع،تحاضنا بشوق ودمـوع ثلاثين عاما،حاول وافـشـلـت كـل مـحـاولاتـه في السكن معه في البيت،ايه برهان.. تركته طالبا اعزب وهو اليوم جد وله نصف دزينة من البنات والاولاد.

هـرب بـي مـن الـفـنـدق بـسـيـارتـه بـاتـجـاه زاويـتـه،تـذكـرنـا كـل شـيء غـزلـنـا مع البـنـات،مـزاحـنـا،صـحـبـة رحـلـوا صـوب القبور وآخرون صوب المنافي،والاحياء في الوطن،حكيت له كيف مت وعدت الى الحياة؟لعل عودتي من اجل أن اراه__قلتها مع نفسي__!، المهم أوصلني للفندق عند منتصف الليل.

لقاء الصبا في معبد زرداشت

صباح اليوم الثاني كان يطرق على باب غرفتي وقد جهزت نفسي لبرنامجه،توجه بي الى وادي دهوك وهو يبعد حوالي كيلومتر واحد عن مركز المدينة،وقفنا امام بناية مكتوب عليها في اللغتين العربية والكـردية مـديـريـة ادامـة وصيانة آثـار جارستين،ومن بداية تخطينا غرفة الاستعلامات، تواجهك المستوطنة بسلم صخري،طلبت من برهان ان يصعد الى الكهف ويصور لي ما يشاهد،لكنه رفض ذلك قائلا وهو صادق ساحملك على ظهري يايوسف،،نبله وصدق كلماته وخجلي من رجولتي منحت ساقي العافية،وتسلقت تارة لوحدي واخرى متكئا على عكـازة صحبتي ودلـيـل رحلـتـي الى المعبد،وحين أساله عن اية معلومة لا يعرفها كان يتصل هاتفيا بمن هو أدرى منه ليشرحها لي.

أقدم الكهوف التي سكنها الانسان

جارستين هي كلمتين (جار) وتعني الاربعة و(ستين) الاعمدة،وتقع هذه المحمية او المنحوتة على سفح جبل بي خير ويسمى ايضا بالجبل الابيض لكونه يرتدي ثوب الثلج اغلب ايام السنة تقريبا، ويرتفع عن مستوى سطح البحر٧٥٠مترا.

في عام ١٩٨٥ زار مدينة دهوك وبالتحديد في قرية(نمريكي)التابعة لناحية فايدة التي تقع في الجنوب منها،فريق من علماء الآثار البولونيين باشراف البروفسور(كوسولوسكي)،وتوصل الفريق الى نتيجة علمية بعد البحث هي، ان تاريخ المنطقة يعود الى ثمانية آلاف عام قبل الميلاد،ومنذ ذلك التاريخ وهي مأهولة بالسكان،واعتمد الفريق بنظريته على وجـود كهف جارستين الموجود في وادي دهوك.

واجمع اغلب الباحثين الذين زاروا المنطقة ان كهف الاعمدة الاربعة يعد من اقدم الكهوف التي عاش فيها الانسان،وهذا ما يؤكده المؤرخ حسين احمد بانه يعود الى القرون الوسطى،فيما تشير الوثائق المحفوظة في متحف دهوك الى ان تاريخ الكهف يعود الى ١٢٠٠٠الف عام ماقبل الميلاد.

أعد لي وحدة الشعب

ونحن نتسلق الجبل بل في اولى خطانا على سفحه شعرت بالتعب فامسك بيدي برهان وهو يعينني مذكرني بايام زمان،تذكرت حينها دون ان يعلم صاحبي،ابياتا للشاعر محمد صالح بحر العلوم ايام حكومة المرحوم عبد الرحمن عارف..وهو يقول:أعد لي وحدة الشعب...وخذ في وصفها قلبي..نشيدا من صميم الحب.....للأكراد والعرب..يظن البعض ان الفوز...في السير مع الذئب..وهذا البعض ذيل الذئب..في التحريك والنصب.

رددتها عدة مرات...وأنا أنوح على وطن مزقته شهوة القوميات والطوائف..المهم لا يهم مادام الأضغاء أبكم!!!!.

جارستين..مستوطنة كبيرة تبلغ مساحتها ١كم مربع،وعلى الرغم من اهميتها كونها تكمن في الكهف او المعبد،لكنها تحتوي على الكثير من المواقع الاثرية المهمة الاخرى،التي تطل جميعها على وادي دهوك الساحر بسده،بمتنزهاته،بمطاعمه،برواده سواء من المدينة او القادمين من مختلف انحاء العالم،ففي كل خطوة فتنة ومع كل التفاتة سحر.

في الطريق الى زرادشت

عند المدخل الرئيس وانت تلفظ بخطاك اولى درجات السلم الصخري،سترغمك منحوتة كبيرة لرجل كهل وهو يرمز الى (فـاراهـار)،اي شعار الديانة الزرادشتية،ستلاحظ من خلال الشروحات الموجودة على الصورة،ان الرجل الكهل يرمز الى المحكمة او القانون الذي شرعته تلك الديانة ليحكم تابعيها،فالحلقة التي في يده رمز للميثاق مع الاله لفعل الخير والنهي عن الشر،اما الدائرة التي في منتصف الاجنحة ترمز الى قانون العمل ورد الفعل،والذي يشير الى انه من يعمل خيرا فسيجني الخير،ومن يعمل الشر سيجني الشر،تذكرت حينها الآية القرآنية التي تقول(ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره،ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره).

المهم الجناحان يتكونان من ثلاث طبقات،تمثل الافكار الطيبة والكلمة الطيبة والاعمال الطيبة،اما التنورة تمثل ثلاث طبقات وترمز الى الافكار السيئة والاعمال السيئة(كم من طبقة نحتاج الآن لندون السوء الذي نعيشه،الشر الذي ادمنه البعض؟،طبقات وطبقات ياكاتم الأصوات)،والخيطان في الاسفل يرمزان الى الثنائية في الكون وهما قوتا الشر والخـيـرالمـوجـودتـان في نـفـس وعـقـل وحـيـاة الانسان،واليدان ترمزان الى الطاعة والصلاة.

وهـذا مـادفع الدكتور هاشم خضير الجنابي في كتابه مدينة دهوك الى الاعتقاد بانها كانت معبد زرادشتيا،وذلك لتشابه مخطط الكهف مع المعابد الزرادشتية.

بـلاد فـارس هـي المـوطـن الأصـلـي لـلـديـانـة الـزرادشـتـيـة،وانـطـلـق بـهـا زرادشـت مابين ١٥٠٠__١٢٠٠ماقبل الميلاد على اساس الصراع بين اله الخير والحكمة(أهو رامزدا)خالق العالم المادي،وبين(أنجراميـنـو)الذي يمثل روح الشر والموت،وعلى الانسان نصرة اله الخير،وتعد هذه الديانة من اقدم الديانات التي انطلقت على اساس التوحيد،وكانت الديانة الرسمية لبلاد فارس،حتى ظهور الاسلام في القرن السابع الميلادي.

تأريخ اكتشاف المعبد

ليس هناك من ثمة تاريخ محدد متفق عليه لاكتشاف جارستين،وتم ذكرها لاول مرة في كتاب دهوك عـام ١٩٧٣،وكـذلـك في كتاب دهـوك في احضان الثورة عام ١٩٧٩،ومن الرموز الدينية المنقوشة في صخور المعبد يجزم الناظر اليها على عراقة وقدم المعبد،وهناك من يقول بانه كان معبدا رئسيا لعبادة اله القمر(سين)،قبل ان يتحول الى معبد زرادشتي،ومايؤكد ذلك هو تشابه المعبد بتخطيطه الدائري الشكل الذي يبلغ ١٥ مترا مربعا،وكذلك ارتكازه على اربعة اعمدة،وهو ما يجعله مماثلا بالشكل والمساحة لكعبة الحضرالموجودة في منطقة الحضر غرب الموصل،وخصصت هذه الكعبة لعبادة الاله الاكبر (شمس)، ومعبد النار (آتشكده) الموجود في منطقة الاحواز، وكذلك مخطط المعبد الزرادشتي في طهران.

حفرٌ للاضاءة وأخرى لطحن الحبوب

تحتوي المستوطنة على ثلاثة مداخل تمثل جميع الجهات باستثناء الجهة الشمالية والبعض يعزو ذلك لاسباب دينية لعدم مرور الشمس من تلك الجهة،وجميع تلك المداخل تؤدي الى المعبد،وفي الطريق الى المعبد فضلا عن السلالم الصخرية والخشبية،تجد من جهة الغرب آثارا لسور متهدم مشيد من الحجارة،وانتشارا واضحا لصخورة كبيرة وبارتفاعات عالية،وهذا ما يوضح للناظر بانها كانت في زمن ما عبارة عن حصن وسور دفاعي منيع.

حـفـر دائـريـة الـشـكـل مـنـحـوتـة عـلـى ارضـ المستوطنة،وتراها باعماق مختلفة وكل حفرة تسمى(هاون)،ويستخدم اغلبها لاشعال النار لغرض اضاءة المستوطنة ليلا او اثناء اجراء المراسيم الدينية،لكن المصادر تشير الى ان بعضها كان يستخدم كمجارش لطحن الحبوب.

شيركوبيكس كان معنا

يمسك بـيـدي بـرهـان مـرة اخـرى وانـا احـاول الوصول الى النفق المؤدي للمعبد،قدماي تقولان لي الم نصل؟، ويردعليها سحر المكان لم نبدأ!،ومع جلوسي على صخرة لاحظت موجة من القلق في عيون صاحبي،تذكرت جملة اجهل قائلها،ان الصديق المزيف كالعملة المزيفة لا تكتشفها إلا عند التعامل،وبالتأكيد العكس هو الصحيح،وهاهو بعد عقود عملة نادرة لا اتعامل بها بل اخزنها بين الضلوع المستحقات التقاعد،وعيناي كناعور حزن يدور بين حسن المكان وعبق التاريخ وألق ماضينا وبؤس حاضرنا،سرحت الى حيث لا ادري وانا اردد مقاطع من قصيدة شاعرنا الكبيرشيركوبيكس(هاهنا الليلة):الجبل شاعر..الشجرة قلم..السهم ورق..النهرسطر..الحجر نقطة..وأنا علامة تعجب...

أنفاق وكهوف أخرى للاستراحة

في المستوطنة يوجد نفقان لابد من المرور باحدهما حتى تصل الى المعبد؛احدهما يقع في الجهة الشرقية من الكهف ويبعد عنه مسافة طويلة،ويتميز بشكله المثلث والوصول اليه يحتم عليك تسلق صخور كبيرة وممر ضيق بالغ الخطورة حتى تصل الى الكهف،اما الآخر وهو مايسلكه الزائرون عادة ويقودك مباشرة الى المعبد،فهو مستطيل الشكل أرضيته تغطيها اعمدة خشبية،يبلغ طوله١١ مترا وعرضه متران وبارتفاع ثلاثة امتار،وهو محفور في الصخر وعلى جوانبه العديد العديد من النقوش،التي تدل على ان جارستين كموقع اثري مر بمراحل تاريخية شأنه شأن محافظة دهوك،وحين دخلت النفق شعرت بان الهواء غير الهواء، وانا غير انا جلست على الخشب ولكن نهضت خجلا من مرور السائحين.

وقبل ان نصل الى غايتنا يجب ان نشير الى ان هناك ٦كهوف ثانوية وباشكال وقياسات مختلفة منحوتة من الصخر،ولعدم وجود اثار لكتابات او منحوتات عليها،يعتقد الباحثون انها كانت تستخدم للنوم او الحراسة.

أسطورة من صنع الانسان

واخـيـرا دخـلـنـا المـعـبـد..لم نـسـتـاذن من زرادشت،الذهول لا يكفي..خرافة ام اسطورة من صنع الانسان،اعمدة اربعة نصفها بيضاء كالملح او كالثلج ونهايتها بنية الشكل مائلة للسواد مرتكزة على دكة كبيرة اعدت للنذور،وكلها مبنية من الحجارة التي ربطت مع بعضها بواسطة كلاليب فضلا عن مادة الجص،والاعمدة الاربعة تشير حسب الديانة الزرادشتية الى تقديسهم للعناصر ال اربعة،الماء،الهواء،النار،التراب.

تؤكد الوثائق انه بعد عمليات التنقيب استخرجت العديد من المصطبات والدكات،واعتقد الباحثون في البداية بانها كانت تستخدم للجلوس،ولكن تبين لهم في ما بعد انها اعدت للموتى،لكون طقوس ديانة زرادشت ونتيجة لتقديسهم العناصر الاربعة،يضعون موتاهم على تلك المصطبات ويضعونها في اماكن مرتفعة لتكون فريسة سهلة المنال للطيور الجارحة التي تقوم بالتهامها.

لا ادري اذا ما استمر الحال في بغدادعلى ماهو عليه الآن،وبعد ان اتخمت مقابرنا بضحايا الارهاب هل سنضطر يوما الى تقديم ضحايانا فريسة للطيور الجارحة وحسب الديانة الزرادشتية؟!،لا اعتقد لان السماء خلت من الطيور،وحتى ان وجدت فالاتربة ستمنعها من الرؤية،وحفارو القبور سيتظاهرون،وقلتها في قصيدتي هزيمة آدم.. أسعدنا حفار القبور وقادة البلد..وأتعسنا من لا يخون اولا يموت!.

مكيفات طبيعية

اصابتني اكثر من رعشة لهيبة المكان وبرودة هوائه الذي يعادل برودة مكيفات هوائية،وسخرت من نفسي بالم وانا اقول (لا سحب ولاوطنية.. كهرباء زرادشتية)،اعطيت الكاميرا لسائح تركي ليصورنا انـا وبـرهـان،صـورنـا ونـحـن نضحك من اعماق صحبتنا المتجذرة من رحم مشاكسات الصبا.

خرجنا من الكهف وانعطفنا الى اليمين عبر سلالم صغيرة،لتصحو عيون القلب على روعة وسحرالطبيعة وهي تغسل كل ادراني بشلال جارستين وهـو ينهال راقصاعلى وادي دهوك كعاشق يغازل عشيقته بالقبل،،عشق ابدي،لاتتمم مع خيبتي.. جارستين..كم من حضارة لفظت انفاسها على صخورك..كم من نذور على مصاطب زرداشت..اثلجت صدور النسور...كم من حبة حنطة انتحرت بمطاحنك ليعيش الانسان...كم من شهيد نحت كرامتك بالدم...ليزهو اليوم وردة حمراء على رباك.

نزلنا من جارستين وكلي يتلفت صوب جارة الوادي لأقول وعذرا لأمير الشعراء احمد شوقي:

ياجارة الوادي دخلتك يائسا...
استذكر الاحلام في ذكـراك
تدريني جارستين منحور الصبا..
لكن قلبي للسـنين يحاكي.
ضحكت إلي بكهفها وصخورها..
فاجبت ضحكتها بقلب باكي
هرولت موجوع الخطى لصبابتي..
قلق الصديق مؤنبـا انهاكي
وغسلت في شـلالها وجعابنـا...
ونسيت كل تعاتب وتشاكي.

ومع المدى في هذا وطني الاسبوع المقبل.

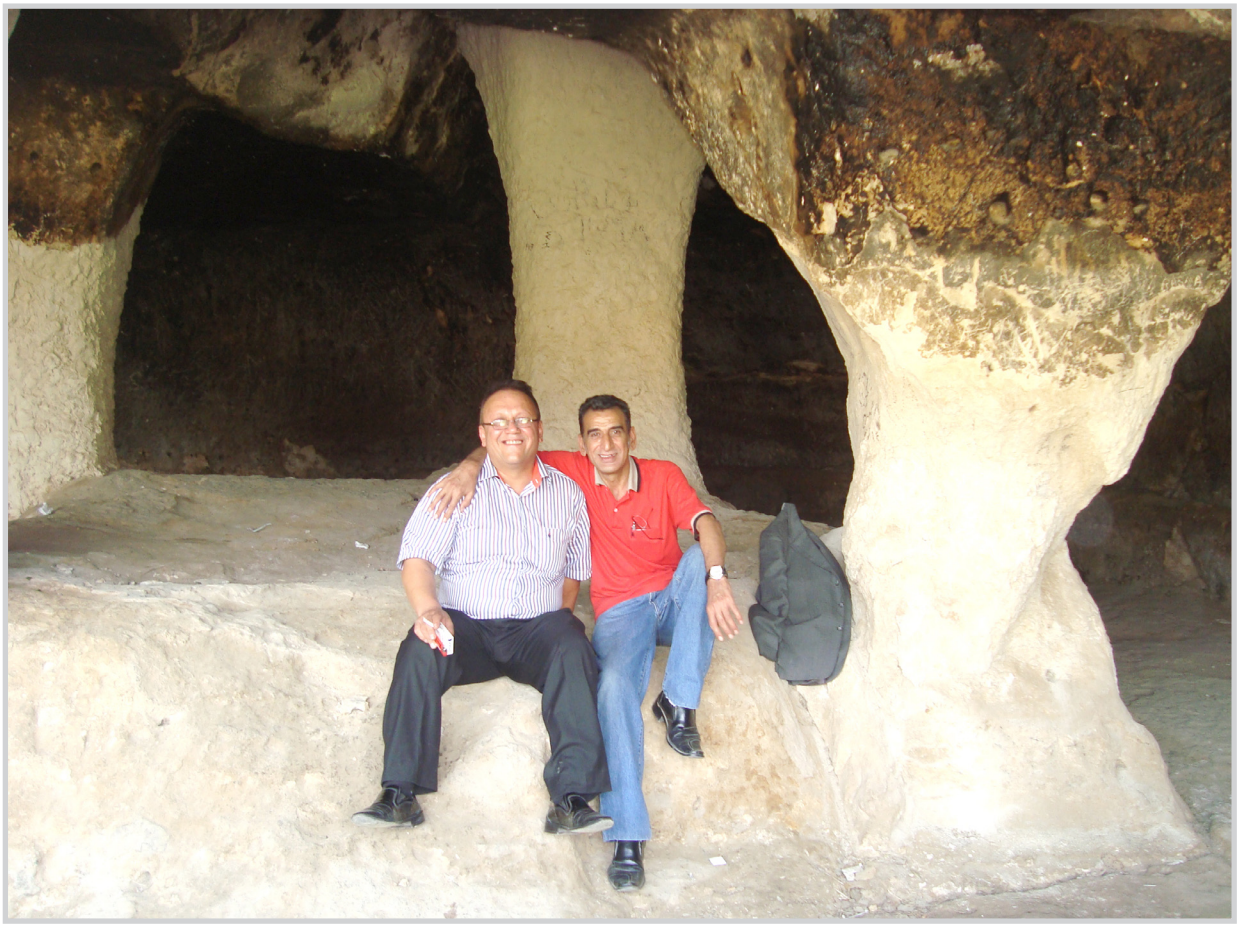
لـقـاء الـصـبـا في المـعـبـد

شـــلال جـارســتـين